التبادل الثقافى
بين الإسكندرية والغرب الإسلامى
في العصور الوسطى الإسلامية

بحث مقدم من
الأستاذ الدكتور
السيد عبد العزيز سالم

التبادل الثقافي بين الإسكندرية والغرب الإسلامي في العصور الوسطى الإسلامية

كانت الإسكندرية في العصر البطلمي -بمجمعها العلمي ومكتبتها المشهورة- منار العلم ومركز الإشعاع الأول للثقافة الهلينستية في عالم البحر المتوسط، وكانت منتهى الغاية، ومقصد العلماء، ووطن أولى العلم والحكماء، ومنتجع الفلاسفة والشعراء. وظل مجمعها العلمي ومكتبتها صرحان عظيمان يحملان مشعل الحضارة السكندرية[1] إلى أن بُددت مكتبتها إثر حريق سنة ٤٨ ق. م. الذى التهم قسمًا كبيرًا منها، ثم قضى الاضطراب السياسي والنزاعات الدينية والمذهبية بها في عصر انتشار المسيحية -وبالذات في سنة ٢٧٢م- على العدد الأعظم مما تبقى من هذه الكتب، وفقدت الإسكندرية بالتدريج مكانتها السياسية التي كانت تتبوأها بين مدن البحر المتوسط وحواضره في العصر الروماني بسبب سياسة القمع والاضطهاد التي كان يمارسها الرومان في عصر الوثنية ضد دعاة المسيحية ومعتنقيها في مصر لا سيما في عهد الإمبراطور دقلديانوس الذى قدم إليها بنفسه سنة ٢٨٤م لإخماد ثورة أهلها عليه، وخرب عمرانها واستباح أراضيها، وحتى بعد اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية دينًا لها بسبب احتدام النزاع المذهبي بين الكنيسة البيزنطية وكنيسة الإسكندرية وإمعان الأباطرة البيزنطيين في سياساتهم التعسفية ضد كنيستها مما أدى إلى انتشار الفوضى في مصر، وتعرض الأقباط لصنوف العذاب والتنكيل.

وكانت الإسكندرية وقت أن افتتحها عمرو بن العاص صلحًا في مستهل المحرم سنة ٢١هـ ما تزال تحتفظ ببعض مكانتها التي كانت تتبوأها منذ أن

---

[1] ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١، ص ١١٨؛ المقريزى، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بيروت، ج١، ١٩٥٩، ص ٤٢.

أسسها الإسكندر، على الرغم مما أصاب عمرانها من أضرار بسبب الاضطرابات التى اجتاحتها إبان الصراع بين الوثنية الرومانية والمسيحية[1]، والنزاع المذهبى حول طبيعة المسيح بينها وبين الكنيسة البيزنطية[2]، وكذلك بسبب تعرض جانب من عمرانها للتدمير أثناء الحصار الفارسي للإسكندرية من جهة[3]؛ ونتيجة لهبوط قسم كبير من واجهتها الشمالية (الحي الملكي) إثر الهزات الأرضية والزلازل العنيفة التي تعرضت لها من جهة أخرى[4]، بالإضافة إلى رحيل عدد كبير من سكانها عنها قبيل الفتح العربى الأول لها فى سنة ٢١هـ وفتحها الثانى سنة ٢٥هـ إلى القسطنطينية، بحيث خلت دورهم بعد رحيلهم عنها وأصبحت أخانذ للعرب الفاتحين، ويتضح من كل ما ذكرناه أن الإسكندرية فقدت كثيرًا من مكانتها ولم تعد -بعد تأسيس الفسطاط واتخاذها حاضرة للديار المصرية- المركز الإدارى والثقافى الأول، لعدة اعتبارات نجملها فيما يلى:

١- أن الإسكندرية بوقوعها على الساحل الشمالى لمصر كانت معرضة لأى هجوم بيزنطى من جهة البحر لى وقت لم يكن للعرب الفاتحين قدرات بحرية كافية لمواجهة البيزنطيين بحرًا؛ فقد كان هؤلاء أصحاب السيادة الفعلية على سائر أنحاء حوض البحر المتوسط شرقيه وغربيه بحيث أطلق على هذا

---

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ١٦٥.

(2) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٤٦- ٤٧.

(3) المرجع السابق نفسه، ص ١٤٦؛ ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٢٤٥.

(4) Gaston Jondet, Les ports submergés de l'ancienne ile de Pharos Memoires Presentes a l'Institat Egyptien, Vol. IX, Le Caire, 1916, PP. 57- 63.

_____ , Les Ports Antiques de Pharos, Bulletin de la Societe archeologue d' Alexandrie, 1912.

البحر اسم بحر الروم. وليس من شك فى أن الإسكندرية بل مصر كلها ربما كانت تتعرض لكارثة حقيقية لو أن العرب اتخذوها حاضرة لهم وتعرضت لغزو بحرى بيزنطى؛ وهو ما حدث بالفعل سنة ٢٥هـ بعد أربع سنوات فقط من فتحها عندما دخلتها قوات البيزنطيين بقيادة مانويل، الأمر الذى دعا عمرو بن العاص إلى حصارها بالمجانيق وتدميره لقطاعات من أسوارها، وافتتاحه لها الفتح الثانى.

٢- الرغبة فى كسب قلوب المصريين باتخاذ حاضرة تقع قريبًا من موقع منف الحاضرة القديمة لمصر[1] لاسيما وأن أهل مصر كانوا ينظرون إلى الإسكندرية على أنها مدينة يونانية البناء والسكان ويعتبرونها خارج مصر Ad Aegyptum.

٣- كان الفاتحون العرب يستهدفون تعريب البلاد وذلك لا يمكن أن يتحقق باتخاذ الإسكندرية حاضرة للبلاد على الرغم من أخاذها الكثيرة التى تغنيهم عن بناء بيوت جديدة، وقد تطلب الأمر تأسيس مدينة عربية إسلامية تكون مركزًا للتعريب ونشر الإسلام، وفى موقع وسط يهيؤها للقيام بهذا الدور الإشعاعى للحضارة الإسلامية.

٤- انقطاع ترعة شيديا عن إمداد الإسكندرية بمياه النيل والاعتماد الكلى آنذاك على الآبار والصهاريج الجوفية؛ وهو أمر يعوق المشروعات الزراعية فى جنوب الإسكندرية مما يحتم اختيار موقع آخر تتوفر فيه مياه السقيا.

لهذه الأسباب كلها كان لزامًا على الفاتحين العرب الاستغناء عن الإسكندرية كعاصمة إسلامية وتأسيس الفسطاط لتقوم بدورها كمركز إشعاع للحضارة الإسلامية لاسيما وأنها كانت تشقها قناة تربطها بالبحر الأحمر وموانيه الحجازية (خليج أمير المؤمنين)، وقد ساعدت فى تزويد دار الهجرة بما كانت تحتاج إليه من القمح.

---

[1] سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية من الفتح العربي حتى العصر الفاطمي، مقال فى كتاب تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور، محافظة الإسكندرية، ١٩٦٣، ص ٢٤١.

وأخذت الإسكندرية تتعرب تدريجيًا لعاملين؛ الأول: انصراف أهل مصر عن الثقافة اليونانية وإقبالهم على الثقافة العربية الإسلامية؛ الأمر الذى دفع من بقى من سكان الإسكندرية الذين آثروا البقاء فيها بعد الفتح العربي إلى التخلى تدريجيًا عن ثقافتهم القديمة والإقبال على حضارة الإسلام، والثاني: نزول أعداد كبيرة من عرب اليمن بالإسكندرية ونواحيها بإقليم البحيرة لحراستها والمرابطة في محارسها، نخص بالذكر منهم بنو لخم وبنو جذام وبنو مدلج وكندة والأزد والحضارمة وخزاعة والعزاغنة، ويعتبر بنو مدلج اللخميون أقدم من نزلها من عرب اليمن[1]

واستمرت الإسكندرية مع تعربها تحتفظ ببعض سمات الثقافة اليونانية فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، ومن المرجح أن مجموعات من كتب الحكمة نجت من الكوارث التى تعرضت لها مكتبة الإسكندرية واحتفظ بها بعض العلماء السكندريين الذين استمروا يقيمون بالإسكندرية بعد الفتح العربى. وظهر من علمائها شخصيات علمية مرموقة فى الكيمياء والطب والفلسفة نذكر منهم على سبيل المثال الراهب مريانوس الذى أخذ عليه خالد بن يزيد بن معاوية علم الكيمياء[2]، وكان خالد هذا مولعًا بدراسة هذا العلم وعرف لذلك بحكيم آل مروان[3]، ومنهم يحيى النحوى الإسكندراني الذى نبغ فى الفلسفة والطبيعيات، وعبد الملك بن بحر السكندرى فى الطب[4] وكان يعرف بغرماطيقوس، أما

---

[1] المقريزى، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٠٥؛ سحر السيد عبد العزيز سالم، القبائل اليمنية فى الإسكندرية والبحيرة ودورها فى حوادث التاريخ الإسلامى، ندوة العلاقات المصرية- اليمنية، القاهرة، ٦-٨ فبراير ١٩٩٠.

[2] ابن النديم ، الفهرست، نشر جستاف فلوجل، ليبزج، ١٨٧١، نسخة مصورة، بيروت ص ٢٥٤؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية، ص ٤٣١.

[3] ابن النديم، المصدر السابق، ص ٢٤٢.

[4] ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، بيروت ١٩٦٥، ص ١٧١.

ترقيتاسيدس الطبيب، وكان يتولى التدريس بالإسكندرية فى عصر الدولة الأموية وأريتاسيوس واشتغل بالطب أيضًا ماغنوس وفوليس المعروف بالقوابلى؛ وكان خبيرًا بعلل النساء، وبليطان السكندرى (ت ١٨٦هـ) الذى بعث الخليفة هارون الرشيد فى طلبه لتطبيب إحدى جواريه، وسعيد بن نوفل الذي كان يعمل فى خدمة أحمد بن طولون.

وفى مجال الثقافة البحرية حظيت الإسكندرية فى هذه القرون الثلاثة الأولى من الهجرة بشهرة كبيرة كقاعدة بحرية متوسطية مهمة، ودار صناعة رئيسة فى مصر، وكان يعمل بها عدد كبير من صناع السفن؛ كالنجارين والمقلفطين وقصّارى الأقمشة ممن كانوا يشتغلون فى دار صناعتها البطلمية[1]، وكان العرب الفاتحون لإفريقية (تونس) يعتمدون فى غزواتهم البحرية -من سنة ٢٨هـ إلى سنة ٨٩هـ- على الأسطول المصرى الراسى فى قاعدة الإسكندرية البحرية، لكن بُعد هذه القاعدة عن إفريقية وصقلية، بحيث يستغرق الوصول إليها فترة طويلة، يضاف إلى ذلك أن كثرة الصدامات البحرية بين العرب والبيزنطيين فى شرق البحر المتوسط، واشتغال الأسطول السكندرى بحراسة السواحل المصرية الشامية ألزم أحد ولاة العرب على إفريقية -وهو حسان بن

---

[1] السيد عبد العزيز سالم ، وأحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، ج١، الإسكندرية ١٩٩٣، ص ٢٥، وقد عثر فى شارع أساكل الغلال بميناء البصل فى الثمانينيات على مدخل أثرى على شكل صرح يفضى إلى درج هابط ينتهى بباب يعلو فتحته شق أتقى أغلب الظن أنه يتعلق بمشط حديدى كان يعلو ويهبط عند الضرورة عن طريق سريالات جانبية وكان الظن آنذاك أن هذا الأثر يتعلق بباب الخوخة الذي كان ينفتح فى الجانب الغربى من السور الشمالى، لكن وجود المدخل العلوى على شكل صرح فرعونى الطابع جعلنى أرجح أنه يرجع إلى العصر البطلمى، وفى تصورى أنه مدخل دار الصناعة البطلمية التى ورد ذكرها فى كتاب «الإلمام بما فتحت به الأحكام» للنويرى السكندرى على أنها دار الصناعة الغربية، وهى دار الصناعة البحرية القديمة التى واصلت نشاطها فى العصر الإسلامى، وكانت تتبع مع زميلتها الشرقية السفن الحربية.

النعمان الغسّانى- بالتفكير جديًا فى إنشاء قاعدة بحرية ودار صناعة على مقربة من ساحل قرطاجنة لإنشاء أسطول ينفرد بتحركاته لغزو جزر البحر المتوسط الغربى وحماية سواحل إفريقية من غارات البيزنطيين، ولم يتردد حسان بن النعمان الغسانى فى الكتابة إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يطلب منه أن يبعث إليه من الإسكندرية طائفة من البحريين الأقباط، المتفوقين فى الثقافة البحرية، والمتمرسين فى صناعة السفن، ليتولوا إنشاء دار صناعة تونس المحدثة، فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر يأمره بأن «يوجّه إلى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده، وأن يحملهم من مصر ، ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش -وهى تونس- وكتب إلى ابن النعمان يأمره أن يبنى لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر ... وأن يصنع لها العراكيب ويجاهد الروم فى البر والبحر، وأن يغار منها على ساحل الروم»[1] فولد القبط عليه وهو مرابط بتونس، وأسهموا -على هذا النحو- فى بناء هذه القاعدة البحرية، وقد سبق لأقباط الإسكندرية من البحريين وممن لديه قدرة على القتال بحرًا ، أن أسهموا فى المعارك البحرية التى خاضها العرب مع البيزنطيين فى شرق البحر المتوسط وأهمها ولعة ذات الصوارى[2] وغزو قبرص سنة ٢٨هـ، وبالإضافة إلى تفوق الإسكندرية فى مجال الثقافة البحرية، كانت الإسكندرية مركزًا متقدمًا فى الثقافة الفنية ويتمثل ذلك بحق فى آثارها القديمة التى كانت مصدر إعجاب كل من شاهدها من رحالة المغرب والأندلس على وجه الخصوص، لا سيما من كانت لديه دراية بصنعة البناء، وأثارت بعظمتها مشاعرهم، وأشهرها منار الإسكندرية الذى كان يراه ربانو السفن والملاحون فى

---

[1] البكرى، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دى سيلان، الجزائر، ١٩١١، ص ١٣٨؛ التجانى، رحلة التجانى ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس، ١٩٥٨، ص ٤٥؛ ابن أبى دينار، المؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس، تونس، ١٢٨٦هـ، ص ١١.

[2] راجع التفاصيل فى : السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية فى مصر والشام، ص ٣٢ هامش ٢.

البحر على مسافة بعيدة يقدرها ابن جبير بأكثر من سبعين ميلا فيهديهم إلى طريق الأمان، وفى ذلك يقول ابن جبير فى رحلته: «ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذى وضعه الله عزّ وجلّ على يدى مَنْ سخّر لذلك آية للمتوسمين، وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى بر الإسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلا، ومبناه فى غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضا، يزاحم الجو سموّا وارتفاعًا، يقصر عنه الوصف، وينحسر دونه الطرف...»[1].

وعنه يقول خالد بن عيسى البلوى صاحب كتاب «تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق» : «فتمكن اليأس، وعظم البأس ، وسقط فى أيدى الناس، فضجوا بالدعاء ... واختلف إليهم أنواع الهلاك والبلاء ...وظهر منار الإسكندرية، فأعلم الناس بذلك، فضجوا سرورًا بالدعاء والبكاء، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء ، وكادوا أن يقضى عليهم الأمل، ومن ترح النفس ما يقتل.

خفقت قلوبهم سرورًا بعدما باتوا بأفئدة يراع خوافق

فما رأيت ليلها بشارة أحلى فى النفوس، وأوقع فى القلوب، ولا أعظم سرورًا من سرور الخلق بها فى تلك الساعة، وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود، وأعلمت بالخروج من العدم إلى الوجود، وفيها نطق لسان الشكر بما تيسر على الفكر ، فقلت:

يشراكم لاح المنار الأسعد ودنا على اليأس المرام الأبعد

وتنفس الكرب الذى كنا به فى حالة البلوى نقوم ونقعد

وافتر من إسكندرية ثغرها الوضاح فهو منظم ومنضد[2] »

هذا المنار الشهير كان فى تصور المسافرين فى البحر أعجوبة من أعاجيب الدنيا، وهداية لهم إلى النجاة من صولة البحر، رسخت صورته فى

---

[1] ابن جبير، رحلة بن جبير، تحقيق وليام رايت، ليدن، ١٩٠٧، ص ٤١.

[2] البلوى، تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، ج١، المحمدية، ص ١٩٦.

مخيلاتهم، واتخذوه أنموذجًا يقلدونه فى بناء منائر مساجدهم؛ فنشهد تقليدًا واضح المعالم لصورته الخارجية فى كل من مئذنتى جامع القيروان وجامع سفاقس، كما نشهده مقلدًا من جوفه فى مآذن جامع الكتبية بمراكش وجامع حسان بالرباط فى المغرب وجامع القصبة بإشبيلية فى الأندلس من عصر الموحدين[1]؛ ومن آثار الإسكندرية القديمة -التى أثارت إعجاب الرحالة والزائرين- بقايا دار الحكمة (ميوزيوم) التى ظلت قائمة فى العصر الإسلامى، فوصفها الرحالة المسلمون أمثال ابن رستة [2]، وسماها الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى باسم أكاديمية أرسطو[3] ، كانت أنموذجًا لمكتبات ومجامع علمية مغربية؛ فقد قلدها الرستميون فى تاهرت فيما أطلق عليه «المكتبة المعصومة» التى كانت تضم نحوًا من ٣٠٠ ألف مجلد فى مختلف أنواع العلوم، ولكنها بُددت على أيدى الفاطميين عند استيلائهم على تاهرت فى سنة ٢٩٦هـ بعد احتفاظهم بعدد كبير من كتب الرياضيات والفلك والهندسة والطب[4]، كما امتلكها الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١- ٢٨٩هـ) الذي يرجع إليه الفضل فى إنشاء بيت الحكمة برقادة؛ فقد كان شغوفًا بالعلم، ودفعه ولعه بالعلوم الرياضية والحكمة، واشتغاله بالفلسفة وتقريبه للعلماء إلى تأسيس هذا المجمع العلمى، واستقدم إليه أعدادًا كبيرة من علماء الفلك والطب والنبات والهندسة والرياضيات من المشرق والمغرب[5]

---

[1] السيد عبد العزيز سالم، التبادل الفنى بين مصر والأندلس فى العصر الإسلامى ، بحث ألقى فى المؤتمر الدولى الأول للتبادل الحضارى بين شعوب البحر المتوسط عبر التاريخ، الإسكندرية ١٩٩٣،

E. A. Salem , The Influence of the Lighthouse of Alexandria on the minarets of North Africa and Spain, Rev Islamic Studies, vol. 30, 1991.

[2] ابن رستة، كتاب الأعلاق النفسية، ج٧ من المكتبة الجغرافية ، تحقيق دى غويه، ليدن ١٨٨١- ١٨٨٢، ص ١٠٨.

[3] Benjamin de Tudela, Via de Benjamin, Madrid, 1918, P. 113.

[4] السيد عبد العزيز سالم، المغرب فى العصر الإسلامى، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ١٩٠.

[5] السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق.

وزوده بالآلات الفلكية، وكان بيت الحكمة الأغلبي مقرًا تعقد فيه المجالس العلمية للمناظرة، وكان يشهد هذه المجالس علماء بارزون من فقهاء المالكية والحنفية، ومن المكتبات التى جاءت تقليدًا لمكتبة الإسكندرية مكتبة قصر الخلافة بقرطبة، وكانت تضم فى عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ٤٠٠ ألف كتاب فى مختلف أنواع الفنون والعلوم بُددت سنة ٤٠٣هـ زمن الفتنة ، فبيع أكثرها على يدى الحاجب واضح العامرى ، ونهب ما تبقى منها على إثر دخول البربر مدينة قرطبة فى سنة ٤٠٣هـ المذكورة[1] .

واستعادت الإسكندرية منذ القرن الثالث الهجرى بعض شهرتها فى مجال الثقافات الفنية والدينية والأدبية؛ ففى مجال الثقافة الفنية ، بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقًا فيما يتعلق بفن عمارة منار الإسكندرية، ومدى تأثيره على مآذن المساجد المغربية الأندلسية ، حظيت الإسكندرية بمكانة سامية فى فن الغناء والطرب، فكانت مركزًا من المراكز الرئيسة فى هذا الفن شأنها شأن دمشق والمدينة فى عصر الخلافة الأموية، فكانت من بين من ضاقت الإسكندرية بهم من فنانيها فى هذا المجال شاب حدث متظرف يحسن الغناء يدعى عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى (ت ٢٣٧هـ) كان موهوبًا بإجادته الغناء وبقدراته وذكائه، وفد إلى قرطبة فى بداية إمارة عبد الرحمن الأوسط؛ فاتصل بالحاجب عيسى بن شهيد الذى توسم فيه الذكاء والكفاية، فنصحه بأن يمسك عن الغناء ويكتفى بالتركيز على قدراته الأدبية، فامتثل لنصحه، وحظى لديه بمنزلة رفيعة، وقدمه إلى الأمير عبد الرحمن الذى كان يقدر نبوغ الموهوبين ، فأعجب به، فرفع منزلته، ونادمه، وأسند إليه خطة صاحب المدينة بقرطبة، ورقاه بعد ذلك إلى الوزارة والقيادة[2] ، ومن الجدير بالذكر أن الخليفة عبد الرحمن الناصر، على

---

[1] السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس، ج٢، الإسكندرية ، ١٩٩٧، ص ١٦٢؛ إبراهيم عبد المنعم سلامة، الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية، رسالة ماجستير نوقشت بآداب الإسكندرية ١٩٩٣، ص ٢٥٧، ٤٤٩.

[2] ابن حيان ، المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس، لطعة خاصة بالسنوات الأخيرة من عهد=

الرغم من أعبائه الثقيلة ومشاغله المختلفة بعث فى سنة ٣٤٤هـ إلى ثغر الإسكندرية سفينة ضخمة ليستقدم إلى الأندلس عددًا ضخمًا من الجوارى البارعات فى فنون الغناء والطرب[1]، وفى مجال الفقه والأدب شارك عدد من علماء الإسكندرية الأعلام ممن اجتذبهم اهتمام بنى أمية فى الأندلس بالثقافات المشرقية والعلوم فى الحركة العلمية بقرطبة؛ ففى الحديث والفقه أسهم بعض علماء الحديث السكندريين فى نشر المذهب المالكى وازدهاره فى الأندلس، كما أدخل بعضهم المذهب الشافعى، ومن أبرز علماء الإسكندرية الذين رحلوا إلى الأندلس فى عصر ملوك الطوائف الفقيه المحدث زيد بن حبيب بن سلامة القضاعى الإسكندرانى الذى دخل الأندلس فى سنة ٤٣٣ هـ وكان شافعى المذهب[2]، والفقيه أبو الطاهر إسماعيل بن الإسكندرانى (عاش فى القرن السادس الهجرى) الذى تتلمذ فى الإسكندرية على يد الشيخ الحافظ أبى الطاهر أحمد السلفى، والفقيه محمد بن محمد بن محارب القيسى الإسكندرانى الذى دخل الأندلس فى أواخر القرن السادس الهجرى، ونزل بغرناطة، وروى عن الفقيه عبد المنعم بن محمد الخزرجى المعروف بابن الفرس (ت ٥٩٧هـ)[3]، والفقيه المحدث أحمد بن معد التجيبى الإسكندرانى المعروف بالإقليشى (ت ٥٥١هـ)

= الأمير عبد الرحمن الأوسط وعصر الأمير محمد ، نشر وتحقيق محمود على مكى ، بيروت ١٩٧٣، ص ١٣٠؛ سحر عبد العزيز سالم، أضواء على فن الغناء والموسيقى فى الأندلس فى عصر الدولة الأموية وعصر دويلات الطوائف، من كتاب بحوث مشرقية ومغربية فى التاريخ والحضارة الإسلامية، الإسكندرية ١٩٩٧، ص ٦٩.

[1] السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ٩٤ اعتمادًا على ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، ليدن ١٨٦٧، ج ٨ ، ص ٥١٣.

[2] ابن بشكوال، الصلة فى تاريخ علماء الأندلس، القاهرة ١٩١٦، قسم ١، ص ١٩٢، ترجمة ٣٤٩؛ كمال السيد أبو مصطفى ، دراسات فى تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، الإسكندرية ١٩٩٧، ص ١٣٣.

[3] كمال أبو مصطفى ، المرجع السابق (شخصيات سكندرية فى الأندلس) ، ص ١٣٤.

الذى استقر بدانية، وأخذ على الفقيه القاضى أبى بكر محمد بن العربى المعافرى الإشبيلى، وأبى على حسين بن محمد بن فيرة بن حيون المعروف بابن سكرة الصدفى السرقسطى ، وعبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى الغرناطى، والمؤرخ محمد بن أبى السرور الإسكندرانى الذى دخل الأندلس فى أواخر القرن الخامس الهجرى[1].

وازدهرت الحياة الثقافية بالإسكندرية ونشطت نشاطاً واضح المعالم فى العصر الفاطمى، واستعادت نضارتها القديمة، وأصبحت مركز الرحلة وغاية الطلب، واجتذبت طلاب العلم إليها لا سيما من الغرب الإسلامى بحيث أصبح يطلق عليها باب المغرب[2] ، وتأسست بها فى هذا العصر مدرستان سنيتان قبل أن ينتشر نظام المدارس السلجوقية بمصر فى عصر الدولة الأيوبية، هما المدرسة العوفية أو الحافظية التى أسسها الوزير الفاطمى رضوان بن ولخشى فى سنة ٥٣٢هـ فى خلافة الحافظ لدين الله، وكان يتولى التدريس بها الفقيه العالم أبو الطاهر إسماعيل بن مكى بن عيسى بن عوف الزهرى الإسكندرانى ، وكان صلاح الدين يوسف يتردد عليه ويسمع منه الموطأ ، وتوفى فى شعبان سنة ٥٨١هـ [3] ، أما المدرسة الثانية فهى المدرسة السلفية أو العادلية التى أسسها العادل على بن السلار والى الإسكندرية أثناء ولايته وذلك فى سنة ٥٤٤هـ وقدم للتدريس بها الفقيه الشافعى أبا الطاهر عماد الدين أحمد السلفى الأصفهانى، وكان عالماً جليلاً أوحد زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية، قدم إلى

---

[1] المرجع نفسه، ص ١٣٤.

[2] الإدريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق ، القاهرة، ج٢، ص ٥٠.

[3] الذهبى ، العبر فى خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ج٤، الكويت، ١٩٦٠، ص ٢٤٢؛ جلال الدين السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ج ١، طبعة مصر ١٣٢١ هـ، ص ٢١٤؛ جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، القاهرة ، ١٩٦٥، ص ١١٢- ١١٥؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، ص ٢١٨، هامش ٣.

الإسكندرية فى سنة ٥١١هـ وتوفى فى ٥ من ربيع الآخر سنة ٥٧٦هـ ودفن بمقبرة وعلة[1]، وكان السلطان الناصر صلاح الدين يوسف على الرغم من مشاغله العديدة –فى مواجهة الصليبيين وتوحيد الجبهة الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة ومصر– يغتنم فرصة وجوده بمصر فيزور الإسكندرية ويتردد على شيخيها الجليلين العوفى والسلفى، وأهم هذه الزيارات زيارته للسلفى فى ٢٥ شعبان سنة ٥٧٢هـ ، وكان يقصده أيام الخميس والجمعة والسبت من الأسبوع[2] ، وزيارته للعالم أبى الطاهر بن عوف فى ١٧ شوال سنة ٥٧٧هـ وسماعه لروايته الحديث عن الطرطوشى ثانى يوم وصوله إلى الإسكندرية[3]. ويرجع اهتمام صلاح الدين بالإسكندرية إلى زمن الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد حيث أولاها كثيرًا من عنايته علميًا وعسكريًا، وكان محور رعايته لها عسكريًا تمكين عمارة أسوارها وتعميره لأسطولها، وعلميًا رعايته لأوفى العلم والتقوى من أهلها الذين كانوا يميلون إلى المذهبين المالكى والشافعى اللذين كانت جذورهما متأصلة فى الإسكندرية منذ العصر الفاطمى، وساعد على ذلك ما كان يبذله فقهاؤها من جهود لمناهضة التشيع، وكان من أبرز شيوخها فى هذا المجال شيخ المالكية الفقيه العالم الأندلسى أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان الفهرى الطرطوشى نزيل الإسكندرية المعروف بابن أبى رندقة[4] المتوفى فى

---

[1] السبكى، طبقات الشافعية ، ج٤، القاهرة ١٣٢٤هـ، ص ١٤٥؛ ابن كثير الدمشقى، البداية والنهاية فى التاريخ، ج ١٢، القاهرة ١٩٣٢، ص ٣٠٧؛ السيوطى ، المصدر السابق، ج١ ، ص ١٦٥.

[2] أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمى أحمد، القاهرة، ١٩٥٦، ج٢، ص ٦٨٩؛ ابن كثير الدمشقى، المصدر السابق، ج١٢، ص ٩٦.

[3] المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٧٦.

[4] ابن بشكوال، كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس، مجلد ٢، مدريد ١٨٨٣، ص ٥١٨؛ الضبى، بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس، تحقيق كوديره، مدريد، ١٨٨٥، ص ١٢٥– ١٢٨؛ الذهبى ، المصدر السابق، ج٤ ، ص ١٤٨؛ السيوطى، المصدر السابق،–

جمادى الأولى سنة ٥٢٥هـ، ومنذ هذا الحين توافد على الإسكندرية عدد كبير من علماء المغرب الأندلس الذى أسهموا فى تنشيط الحياة الثقافية بالإسكندرية، وكان لهم دور رائع فى ازدهار الفقه المالكى فى هذا الثغر، نذكر منهم على سبيل المثال أبو القاسم بن مخلوف المغربى نزيل الإسكندرية (ت ٥٣٣هـ)، وأبو الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة المالكى[1]، والفقيه الشافعى أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز اللخمى الميورقى نزيل الإسكندرية (ت ٥٢٣هـ)[2] والفقيه أبو العباس الوليد بن بكر بن مخلد العمرى السرقسطى (ت ٣٩٢هـ) ، ومحمد بن عمر الفخار القرطبى (ت ٤١٩هـ) ، والشيخ المقرئ ضياء الدين أبو الحسن على بن محمد الخزرجى الساعدى الغرناطى[3]، وناصر الدين محمد بن حسن بن عبد الملك بن ساطر البونى، الأديب جمال الدين أبو عبد الله محمد بن حسن بن على بن التونسى[4] وأبو عبد الله محمد بن مسلم بن محمد القرشى المازرى الصقلى[5] وعبد الرحمن بن أبى بكر بن عتيق بن خلف الصقلى المعروف بابن الفحام - وكان من شيوخ القراء فى الإسكندرية[6] - وأبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصارى المالكى القرطبى (ت ٥٥٦هـ)[7] والحافظ المقرئ الحسن بن

= ج١ ، ص ٢١٣؛ جمال الشيال، المرجع السابق، ص ١٠٠٠٥٠؛ الشيال، أبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد الثائر، سلسلة أعلام العرب، عدد ٧٤ لسنة ١٩٦٨ والسيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضاراتها فى العصر الإسلامى، ص ٢٢٣ هامش ٤.

[1] المقرى، نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ج٣، القاهرة ١٩٤٩، ص ٩.

[2] السيوطى ، المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٩.

[3] ابن رشيد السبتى، ملأ العيبة بما جمع بطول الغيبة، ج ٣ تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس ، ١٩٨١، ص ٣٤-٣٥.

[4] ابن رشيد السبتى، المصدر السابق، تقديم ،ص ٣٧.

[5] الضبى، المصدر السابق ، ص ١٣٢، ١٣٤.

[6] السيوطى، المصدر السابق، ج١ ، ص ٢٣٥.

[7] السيوطى، نفس المصدر، ص ٢١٥.

خلف بن بليمة القيروانى نزيل الاسكندرية[1] (ت ٥١٤هـ) واليسع بن حزم الغافقى الجيانى نزيل الإسكندرية فى عصر السلطان صلاح الدين (ت ٥٧٥هـ)[2] والقاسم بن خيرة بن خلف الشاطبى (ت ٦٥٥هـ)[3] وأبو على منصور بن لب الأنصارى الأندلسى[4] ، ولن الجرج أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن الأنصارى التلمساني، وكان لهؤلاء الفقهاء الوافدين من الغرب الإسلامى أعظم الأثر فى دعم الدراسات والثقافات المتعلقة بالفقه المالكى ، وساعد على ذلك وجود المدرستين الفاطميتين السلفية والعوفية، وتمسك أهل الإسكندرية بالمذهب المالكى متأثرين فى ذلك بعلماء المغرب والأندلس المالكيين، وكان لكثرة عدد هؤلاء بالثغر السكندرى الأثير لنزولهم فى عصر الدولة الأيوبية أكبر الأثر فى حمل السلطان الناصر صلاح الدين فى إنشاء دار لهم بالإسكندرية ينزلون فيها متى شاءوا وبها من القومة من يتكفل بمعيشتهم، كما أقام لهم -عند زيارته للإسكندرية سنة٥٧٧هـ- مارستانًا وحمامًا ومدرسة على ضريح المعظم تورانشاه[5] .

وبلغت الإسكندرية ذروة تقدمها العلمى والثقافى فى عصر دولة المماليك بفضل مدارسها العديدة التى أسهم فى بنائها تجار الكارم؛ فكان منها -بالإضافة إلى العوفية والسلفية- المدرسة الخلاصية، والمدرسة النابلسية، ومدرسة التكريتى التى تنسب إلى ابن الكويك التاجر الكارمى السكندري، ودار الحديث التكريتية للفقه الشافعى ، ودار الحديث النبيهية للفقيه المالكى، ومدرسة الفخر، ومدرسة البلبيسى، ومدرسة ابن حباسة، ومدرسة الدمامينى السكندرى، والمدرسة الخضراء المنسوبة إلى منشئها الشيخ خضر بن أبى بكر العدوى،

---

[1] نفس المصدر ، ص ٢٣٥.

[2] نفسه، ص ٢٣٦.

[3] المصدر نفسه، ص ٢٣٦.

[4] المقرى، نفح الطيب، ج٣ ، ص ٣٠٢.

[5] ابن جبير، الرحلة ، ص ١٤٢ المقريزى ، السلوك، ج١، ص ٧٦.

والمدرسة السراجية، ومدرسة قايتباى، ومدرسة ابن الأبزارى، وهذا بخلاف كثير من الربطة والخانقاوات التى كانت تضم خلوات وأضرحة مخصصة للصوفية والزهاد نذكر من بينها رباط سوار ، ورباط الهكارى المنسوب إلى باخل بن عبد الله الهكارى متولى ثغر الإسكندرية فى عهد السلطان المنصور قلاوون (ت ٦٨٣هـ) وكان يقع خارج باب رشيد (الباب الشرقى من أبواب الإسكندرية) ، ومنها أيضا رباط ابن سلام المنسوب إلى منشئه أبى عبد الله محمد بن سلام، وكان يقع خارج باب البحر، تأسس قبل وقعة القبارصة سنة ٧٦٧هـ بأكثر من عام، ورباط ابن طغية الواقع على مقربة من رباط ابن سلام، ورباط قجماس الإسحاقى نائب سلطنة الإسكندرية فى عهد السلطان الأشرف أبو النصر قايتباى ، وكان يقع خارج باب البحر ، وخانقاه بيليك الحسنى، الذى ولى الإسكندرية فى القرن السابع[1] .

وبفضل هذه المنشآت العلمية ازدهرت الحياة الثقافية بالإسكندرية المملوكية وجمعت بيت الثقافات المغربية الأندلسية والمشرقية سواء فى الطب والهندسة والفلسفة أم العلوم والثقافات الإسلامية، ونتج عن ذلك ما سمى بالاندماج الثقافى؛ فمن علماء المغرب والأندلس الذين نزلوا بالإسكندرية وشاركوا بعلومهم فى الحركة العملية بالثغر فى هذا العصر الفقيه الزاهد نزيل الإسكندرية أبو عبد الله محمد بن سليمان المعاترى الشاطبى الذى انقطع للعبادة فى رباط سوار بتربة أستاذه أبي العباس المرسى وتولى فى رمضان سنة ٦٧٢هـ[2] ، والشيخ الأكبر العارف بالله أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى المرسى رأس أصحاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى (ت ٦٨٦هـ) [3]

---

[1] ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦، ج٥ ص ١٤٣.

[2] المقرى، نفح الطيب، ج٣، ص ٣٤١.

[3] جمال الدين الشيال ، أعلام الإسكندرية، ص ١٩٥- ٢١٢؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها ، ص ٤٧٥، هامش ١.

وغيرهما من شيوخ المغرب والأندلس. وعلى أيدى هؤلاء الجلة من العلماء المغاربة والأندلسيين تتلمذ كثير من أهل الإسكندرية فى الحديث والقراءات والفقه ونبغ منهم على سبيل المثال جعفر بن على بن هبة الله أبو الفضل الهمذانى الإسكندرانى المقرئ المحدث (ت ٦٣٦هـ) وابن الصفراوى الإسكندرانى (ت ٦٣٦هـ) وناصر الدين أبو العباسى أحمد بن محمد بن منصور الجذامى الإسكندرانى أحد الأئمة المتبحرين فى العلوم الدينية من التفسير والفقه والأصول، بالإضافة إلى نبوغه فى العربية والبلاغة والأنساب (ت ٦٨٣هـ)[1]، وابن أخيه عبد الواحد بن شرف الدين بن المنير (ت ٧٣٦هـ)[2] والحافظ ابن العماد أبو المظفر منصور بن سليمان الهمذانى الإسكندرانى الشافعى الذى صنف فى الحديث والفقه وتاريخ الإسكندرية[3]، والمكين الأسمر عبد الله بن منصور الإسكندرانى شيخ قراء الإسكندرية (ت ٦٩٢هـ)[4]، ويحيى بن أحمد بن الصواف الجذامى الإسكندرانى (ت ٧٥٠هـ)[5] والشيخ الزاهد أبو القاسم محمد بن منصور بن يحيى المالكى الإسكندرانى المعروف بالقبارى (ت ٦٦٢هـ)[6]، وتاج الدين ابن عطاء الله أحمد بن محمد بن عبد الكريم الجذامى الإسكندرانى المتصوف، أحد تلامذة الشيخ أبى العباس المرسى (ت ٧٠٧هـ) وياقوت العرش تلميذ الشيخ أبى العباس المرسى (ت ٧٣٢هـ) ، وفى علوم اللغة والنحو محمد بن عبد العزيز الإسكندرانى (ت ٦٩٣هـ) وبدر الدين محمد بن أبى بكر الدماميني الإسكندرانى (ت ٨٢٧هـ) وفى الشعر والأدب النساج بن غلوم الإسكندرانى (ت ٦٨٠هـ)[7].

---

[1] السيوطى، المصدر السابق، ج١ ، ص ١٤٢.

[2] المصدر نفسه، ص ٢١٦.

[3] المصدر نفسه، ص ١٦٦.

[4] نفسه، ص ٢٤٠.

[5] نفسه، ص ٢٤٠.

[6] نفسه، ص ٢٤٨.

[7] السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٥٤٧.

ويتبين مما سبق عرضه أن التواصل الثقافى بين الإسكندرية والمغرب لم ينقطع منذ عصر الخلافة الأموية حتى نهاية دولتى المماليك، وكان لوفود عدد كبير من علماء المغرب والأندلس إلى الإسكندرية فى موجات ونزولهم بها أعظم الأثر فى دعم ثقافتها بروافد ثقافية مغربية أثرت الحياة الثقافية فى الثغر المحروس ، وأنجبت الإسكندرية أجيالا من علمائها توفرت لديهم مقومات نهضتها العلمية والحضارية فى العصر المملوكى بوجه خاص وجعلتها بحق من أهم مراكز الإشعاع الثقافى لى عالم البحر المتوسط.